

مجلة العاصمة

مجلة بحثية سنوية محكمة
المجلد الرابع عشر، ٢٠٢٢ م

معامل التأثير العربي: 2.71

ISSN (Print) : 2277-9914

e-ISSN (Online) : 2321-2756



قسم اللغة العربية، كلية الجامعة
ترونتبرم، كيرالا، الهند

قراءة نقدية في رواية "محال" ليوסף زيدان

- **Nurul Hanilah Binti Mohd Ismath**, Asst. Professor, Department of Arabic, Kulliyah of Languages and Management, International Islamic University, Malaysia
- **Abdul Hadi Bin Abd Aziz**, Lecturer, Department of Arabic, Pusat Bahasa Antarabangsa, Universiti Tun Hussein Onn, Malaysia

المُلخَص

تسعى الرواية الحديثة إلى التأثير في القارئ عن طريق تقديم "الحقائق النوعية الفنية" لأن فن الأدب نفسه ليس توصيلاً وإنما التأثير، وهذا التقديم لا بد بصورة مقنعة^(١). ومن الجدير بالذكر أن ظهور الرواية العربية الحديثة يستند إلى أسس ومركزات أدبية وثقافية واجتماعية وسياسية وحضارية^(٢)، وتضطر قراءة العمل الأدبي الفكري (الرواية) للتحرك في اتجاهين الزمني وما يثيره هذا في نفس المتلقي من علاقات وروابط، وثانتهما ما يجذب المتلقي تجاه بؤرة النص الأدبي حيث مركزه الفكري وثقله، مع ما يتصاعد مع الألفاظ ويربط بينها ويجلو دلالاتها لكي يصل بالقارئ لما وراء الألفاظ. ويسعى هذا البحث إلى قراءة نقدية في رواية "محال" ليوסף زيدان، وفيه ستكشف الباحثة الرؤية لهذه الرواية، وبنيتها السردية، والمكان، والزمان، والشخصيات، وأساليب السرد.



الكلمات المفتاحية: الرواية الحديثة - رواية "محال" - الرؤية

١. العنوان والرؤية

تدور الرواية "محال" حول شاب عشريني العمر، ولم نعرف اسمه لأن الكاتب ما ذكره حتى في النهاية. وهذا الشاب يعمل مرشداً سياحياً بمدينة الأقصر في مصر، وهو يدرس في جامعة الخرطوم. وكان كثير الأحلام ومن أحلامه البسيطة كالزواج والاستقرار، حتى يحدث ما يقلب نظام حياته بعد مقابلة تمت في التسعينات مع أسامة بن لادن بالسودان. وأجمل ما بالرواية عنوانها الساحر والمهم وهو "محال"، فالكاتب يترك للقراء كيفية قراءتها بكسر الميم أو بضمها أو بفتح الميم، وهذا يشير إلى براعة الكاتب في عمليته الأدبية.

ولعل "محال" هنا بكسرهما أي بمعنى القوة، حيث إن هذه الرواية تتحدث عن الشاب العادي في مواجهة الصعوبات في حياته وكانت حياته عادية تتحوّل إلى الحياة الصعبة حتى يواجه التعذيب في جوانتانامو وهو بعد صحبته بأسامة بن لادن في السودان. وكأنّ تعرّفه على أسامة بن لادن عفو الخاطر عندما يصاحب أبيه في جهة شمال السودان في الخرطوم. ومن الملاحظ أنّ عنوان "محال" يثير فضول القراء لمعرفة مجريات الأحداث في الرواية. وهمّ الرواية الأساسي يكمن في استجلاء صورة من شخصية محورية؛ أي الشاب في وجه الصعوبة في حياته... حيث وجدنا أنّ حياة الشاب في الأوّل إنسان متديّن وله أحلام بسيطة. ثمّ يتغيّر

^١ انظر الماضي، شكري عزيز، أنماط الرواية العربية الجديدة (كويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٨م)، ص ١٢؛ الماضي، شكري عزيز، مقياس الأدب، مقالات

في النقد الحديث والمعاصر (دبي: دار العالم العربي، ٢٠١١م)، ص ١٤٣.

^٢ انظر المصدر السابق، ص ١٥.

موقفه قليلاً من اختلاط بين الرجال والنساء ويتحوّل إلى غير متشدّد في هذا الأمر بعد ظهور نورا فتاة جامعية في فوج سياحي في أسوان. وتبدأ حياته في شدّة الصعوبة عندما يقابل أسامة بن لادن في السودان مع أبيه حيث جاسوس أمريكي رآه مصاحبة مع أسامة، ثمّ يُسجن معه في جوانتانامو. وفيه يُعذّب بشدّة... وهنا يحاول الكاتب أن يصوّر موقف الأمريكيين من المسلمين حيث إنهم يكاد يرون أنّ كل مسلم إرهابي، وهذا التصور الخاطئ سائد نحو المسلمين في الآونة الأخيرة. والغرب خاصة الأمريكيون يرون المسلمين بهذا التصوّر بدءاً من حدث سبتمبر ٢٠٠١م. وهذا ما أراد الكاتب أن يوصله إلى القراء.

٢. بنية السرد (الأحداث)

ومن الجدير بالذكر أنّ الشكل الروائي يتميّز بانسبايئته وقدرته على استلهاً أدوات وتقنيات فنيّة من الشعر والدراما والسينما والتراث الأدبي الشفاهي. وهذا المزج بين الأساليب المتنوعة وصهرها في بوتقة السرد يتميّز عن سائر الأنواع الأدبيّة بقدرته الفائقة على التمرّد على الحدود والقواعد، وعلى ذاته أيضاً^(١). وعندما لاحظنا البنية السردية في الرواية سوف نجد أنّها لا تعتمد على الحركة (البنية السردية العادية) وإنّما يستخدم الكاتب بنية السرد الغنائي وهي تتجسّد من خلال التصميم، ولاحظنا مثلاً في الرواية لا يوجد رابط بين مشهد (أ) و(ب) و(ج) حيث إنّ البطل في الرواية في المشهد الأوّل من هذه الرواية كان يعمل مرشداً سياحياً وبعد ذلك، يتعرف على نورا ثمّ، يرجع إلى بيته في السودان: "كادت نورا تصير ذكرى عابرة تتوارى كالمشاعر المهمة الغامضة التي تمطرها الأيام ثم تبدو بعد حين وكأنها لم تحدث أصلاً... أمامه شهرين أو ثلاثة لأن امتحانه الجامعي الأخير سيكون في شهر مايو"^(٢). وبعد ذلك، يتعرّف على أسامة بن لادن، ومن خلال تعرّفه يتقابل نورا مرّة أخرى، وبعد ذلك، يسجن في جوانتانامو. ولاحظنا أنّ التصميم ينهض من خلال التجاور والتكرار والتداخل والتأمّل والصور الافتراضية، وليست وفق قانون السببية والمصادفات أو غيرهما. كما تلجأ الرواية إلى الرموز المتناثرة. مثلاً لا يوجد اسم الشخص المحورية. كان الكاتب متعمداً يخفي اسمه ويكتفي الكاتب باستخدام "شاب"، أو بلقب "زول" في أسوان، أو أبو سمرة في الإسكندرية، أو أبو بلال في كازخستان. فهنا لاحظنا أنّ هذا اللقب يرمز لكل شخص، فالروائي تعمد عدم إلقاء اسم شخصية محورية في الرواية، هل أنه يرى الأماكن هي التي تضيف على الأشخاص أسمائهم. لعلّ هذا يشير إلى أنّ هذا "الشاب" يرمز إلى كلّ شاب؛ أي أنّه شخص عادي، له أحلام عادي ولكن في حياته يواجه الصعوبات والتعذيب. ومن الملاحظ أنّ الكاتب يوظّف الاسترجاع في روايته، حيث وجدنا في المشهد الأوّل يصوّر الشاب في انتظار البص لبدء عمله الجديد كالمُرشد، والمشهد الثاني يتحدّث عن حياته منذ صغره والمشهد الثالث يتحدّث عن نفسه في اللحظة اللآنية؛ أي عمله الجديد^(٣). ومن هنا تتبدى لنا جلياً توظيف الكاتب الاسترجاع في روايته.

ولو تأملنا هذه الرواية من الأوّل حتى الأخير لوجدنا أنّ ثمة السارد يسيطر كل الأحداث من أوّلها إلى آخرها، وكأنّه يعرف كل شيء يجري من الداخل والخارج. من مثل: "لن يتزوّج بالطبع من (الريفافية) الوافدين إلى هنا من الصعيد وسائر النواحي المصرية لأنّ في نسائهم غلطة، وفي رجالهم عنفاً..."^(٤). وكذلك: "مال على رأسها

^١ انظر الماضي، شكري عزيز، أنماط الرواية العربية الجديدة (الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٨م)، ص ٣٩.

^٢ زيدان، يوسف، محال (القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٢م)، ص ٤٧.

^٣ زيدان، محال، ص ٧-١٣.

^٤ المصدر السابق، ص ٢٥.

بجانب وجهه فغرق وهو معصوب العينين في شعرها غير المعصوب. لو رأهما الآن إنسان لظن أنهما لوحة مرسومة...^(١). واستخدام صوت السارد هنا يجسد نغمات مباينة لأصوات الزمان والمكان والناس، كما أنه ينطوي على نبرات حادة وصاخبة وصادمة.

٣. الشخصيات الروائية:

الشخصية النامية: الشاب (الذي لا نعرف اسمه):

هو نصف مصري نصف سوداني، أمه مصرية وأبوه من السودان يدرس بقسم الاجتماع ويعمل في الصيف والشتاء كمرشد سياحي لدى قريب له. وهو متدين ولكن ليس باستقامة: "... وأخرج من جيب قميصه المصحف وقرأ من حيث توقّف بالأمس عند أول سورة النور {سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون، الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة}. "سيحان الله، لماذا يأتي ذكر الزنا والزناة في ابتداء سورة اسمها النور؟... اللهم لا تأخذنا بما بفعل السفهاء منا، ولا تؤاخذنا بأوزارهم، فأنت اللطيف الخبير. قال ذلك في نفسه وعاد إلى تلاوة الخافقة وهو يرشف شايه على مهل، حتى أشرفت روحه حين وصل إلى الآيات: {الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح...} (٢). ولكن لاحظنا موقفه غض البصر قد تحوّل إلى عكسه بعدما تعرّف على نورا: "...رأها من بعيد وهو قادم نحوها... يذهب العقل جمالها الوقور الهادئ. هي تشبه ميريت أمون. حياتها وانطلقا إلى الشوارع... حما الهواء إلى أنفه عطرا ساحرا كأنه الياسمين معتصرا كله، ولمّا سألتها عن اسم عطرها أجابت مع نظرة جانبية...^(٣). ووجدنا أيضًا من خلال قراءة الرواية أنّ الشاب شخص مجتهد ولديه أمل وأحلام ومواظب في عمله: "قبل سنوات أربعة انتهى من سنى مدرسته الثانوية متأهلاً للجامعة وصار عليه أن يعمل إلى جانب الدراسة ليساعد أباه الكادح ويترقى بذلك إلى مرتبة الرجال. الرجل لا بد له من عمل، لأنّ البقاء بالبيوت شأن النساء ولا يليق بالرجل التشبه بهنّ. هذا ما تعلّمه من أبيه منذ الصغر ضمن أصول صار مع الوقت يراها تامة اليقين...^(٤). وكانت حياته بسيطة وليس غنيًا: "أسكن الأب أسرته في أم درامان ليمر بهم في ذهابه والإياب فيستقر معهم أيّامًا في البيت القريب من الشارع الواسع حيث الحياة أهدأ من الخرطوم وأرخص وأنسب للأم والأبناء الصغار. أمّ درمان هي الجانب الأفقر من الخرطوم والأطيب مع أنّ كلا الجانبين طيب وفقير"^(٥).

ومن الملاحظ أيضًا أنّ هذا الشاب يحبر أن يتعامل مع العالم الطبيعي، حيث نستطيع أن نرى عندما يجلس في البحيرة ويكتب فيها الأشعار التي لم يخبر بها أحدا قط ولن يقرأها إلا لهذه البحيرة الحنون التي يؤلف الشعر من أجلها^(٦). وكانّ البحيرة صديقه: "العام الماضي كتب للبحيرة قصيدة يسألها فيها عن اسمها وعمّا

١ المصدر السابق، ص ٩٥.

٢ زيدان، يوسف، محال (القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٢م)، ص ٢٢.

٣ المصدر نفسه، ص ٤١.

٤ المصدر نفسه، ص ١١.

٥ المصدر نفسه، ص ١١.

٦ المصدر نفسه، ص ٨.

رأته طيلة السنوات الثلاثين الماضية فلم تجاوبه. الناس هنا يسمونها البحيرة من دون إضافة، أو يفضلون للأغراب فيقولون (بحيرة السد) وأمّا الكتب المدرسية فهي تحتال على الصبيان وتسميها بحيرة ناصر^(١).

لوتفحصنا هذه الشخصية النامية وهو الشاب، لوجدنا أنّها تنمّي الأحداث في هذه الرواية:

الشاب في مصر كمرشد سياحي ← الشاب رجع إلى السودان (تعرف على أسامة بن لادن).

ومن الجدير بالملاحظة أنّ فعل الشخصية يعني هذه القصة حيث إنّ نقطة انطلاق هذه الرواية تصل إلى القمة في لحظة تعرف الشاب على أسامة بن لادن ويراه جاسوس أمريكي. وهذا الفعل يشكّل عماد النص الروائي ككل. وبناء عليه، فإن هذا النص الروائي قائم على رحلتين متقابلتين من حيث الوسائل ومن حيث الغاية ومن حيث الدلالات يجعل من الرحلة الثانية (تعرفه على أسامة) نقيضاً للرحلة الأولى؛ أي فهي فردية في الوسائل وفردية في الغاية حيث فقط يفكر عن صلاحية نفسه ولكن عندما تعرف على أسامة، يتغير غايته إذ سجن مع "طالبان" ويحيى جماعةً.

الشخصيات المسطحة:

- نورا: هي امرأة جميلة يحبها الشاب (الشخصية النامية): "رأها من بعيد وهو قادم نحوها... يذهب العقل جمالها الوقور الهادئ"^(٢).
- سهيل العوامي: عامل عمال في الإرشاد (المركز السياحي)، في الثلاثين من عمره ولم يتم تعليمه لكنه يتكلم بأربع لغات لا يكتب منها حرفاً. وهو يحب النساء كثيراً: "...مع أنه تزوج عدة مرات وعنده الآن زوجتان، لكنه لا يستحرم نكاح الأجنبية..."^(٣). وهو أيضاً شخص طيب ولطيف: "سهيل شخص طيب لطيف الصحبة لكن مشكلته تكمن في ظنه بأنّه يعرف كل شيء..."
- الحاج بلال: هو مؤذن، ورجل وديع القلب، وطيب: "...لولا الصديق القديم لوالده "الحاج بلال" لما سكن بهذا البيت المتزوي بالطرف الجنوبي من أسوان، ناحية الخزان، واطمأنّ فيه..."^(٤).
- حمدون أبو غابة: هو مدير المكتب السياحي وحسن: "...لولا قريب أمّه "حمدون أبو غابة" مدير المكتب السياحي لما تمكّن من إيجاد فرصة في السياحة التي يتنافس على رزقها الوفير المتنافسون..."^(٥).
- عبد العال الأبنوبي: الشاب الصعيدي الذي يعمل مع الشاب بالمكتب السياحي. وهو صديق للشاب ويواظب على الصلاة: "في أيامه الأولى بأسوان تعرف إلى عبد العال الذي كان يواظب على الصلاة بالزاوية الملتصق بها بيت الحاج بلال..."

٤. الزمان والمكان

ومن الجدير بالملاحظة أنّ هذه الرواية تنشر في عام ٢٠١٢م وهي تتحدث عن موضوع متداول في العالم ألا وهو نظرة الغرب لدى المسلمين بأنهم إرهابيون. والزمن داخل النص الروائي يقع فيما بين ١٩٩١ حتى ٢٠٠١م. والزمن هو العنصر الأساسي الذي تتطلبه عملية سرد الأحداث لكي تتحوّل إلى قصة وخارج الزمن لا

^١ المصدر نفسه، ص ٩.

^٢ زيدان، محال، ص ٤٥.

^٣ زيدان، محال، ص ١٢.

^٤ زيدان، محال، ص ١٢.

^٥ المصدر نفسه، ص ١٢.

نصادف إلا القيم التي تفتقد إلى سياق يحتضنها. وإذا لاحظنا الرواية لوجدنا الكاتب يوظف الاسترجاع حيث وجدنا أنّ في المشهد الأول يصوّر أنّ الشاب في انتظار البص لبدء عمله الجديد كمرشد السياحي، والمشهد الثاني يتحدّث عن حياته منذ صغره والمشهد الثالث يتحدّث عن نفسه في اللحظة اللآنية. ومن هنا تتبدى لنا جليا توظيف الكاتب الاسترجاع في روايته. ولاحظنا أنّ الرواية تدور في مصر، والسودان، والخليج، وأوزباكستان وأفغانستان. وكل هذه الأماكن يتّخذها الكاتب ليس مكانًا فارغًا وإنما ثمة مجموعة من القيم أو الدلالات الخاصة نعرف من خلالها. وقيمة المكان في الحقيقة تتحدّد في الرواية بمقدار نجاح الكاتب في جعله تعبيرًا مجازيًا عن شيء ما قد يتعلّق بنفسية الشخصية أو بمستواها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي^(١). وفي الرواية وجدت الباحثة أنّ الكاتب نجح في إشارة إلى كل الأماكن حيث إنها تتعلّق بنفسية الشخصية النامية. وفي هذا المنطلق، نعرف شخصيته ونعرف موقفه، وعندما يعود إلى السودان ويتعرف على أسامة وسجن معه في جوانتانامو، فنلاحظ يتغيّر تفكيره حيث لا يرى الحياة مجردًا للزواج والاستقرار وإنما يتّسع تفكيره عن نظرة العالم عامّة والغرب خاصّة من المسلمين، وانطلاقًا من هذا المكان والزمان، أصبح شابًا يهتم بأمور عالمية. ومن الملاحظ من خلال وصف المكان سنعرف دلالة سياسية لهذا المكان.

٥. أساليب السرد

قد اختار يوسف زيدان الصيغة السردية الروائية في الرواية، وكأنه ينسجم رؤية تنظر إلى الرواية باعتبارها حياة، موضوعها الإنسان. ولعلّ اختيار الكاتب هذه الأساليب لكي يفكّر القراء ما يريد الكاتب إيصاله. ومثال ذلك: "وحيدًا تمشى حول فندقة فلم يجد من الناس ماژة، ولا جلوسًا، فجاس تحت الأشجار العالية حتى لمح من بعيد أنوارًا. اقترب منها فوجدها مقهى على رصيفه مقاعد قليلة"^(٢). يوظف الكاتب الأحاديث النبوية أو الحكم في الرواية حين يصف الشاب المتدين الذي يرفض الزنا. وكذلك لاحظنا توظيف الكاتب بلغة الشعر حين الشاب حزين: "أهذا العذاب لذنوب، عن غير قصد صار أم هو يا رب اختيار؟ قد توهنتي دروب بدت كأنها اختيار لكنها كالحياة كلها جبر واضطرابيا رب، قد ساء واسودّ كالليل النهار وانهمز الصبر مني، وانهمز الجدار"^(٣). ينتهج المؤلف حيلا روائية تدفع القارئ نحو الرواية وتدافع عنها لإقناع المتلقي، فنقع على بناء تركيبي جمالي يحقق انشغالا بالتحفيز الواقعي، فيما يعد عنصرًا من عناصر التّشويق عبر الإيهام بالحقيقة وتجزير واقعية النصب اعتباره حقيقةً جرت أحداثها في الواقع، وسيتم تحويله إلى عملية سردية.

المصادر والمراجع

- خليل، إبراهيم محمود. (٢٠١١م). النقد الأدبي الحديث عمّان: دار المسيرة.
- زيدان، يوسف. (٢٠١٢م) محال. القاهرة: دار الشروق.
- الماضي، شكري عزيز. (٢٠١١م). مقاييس الأدب، مقالات في النقد الحديث والمعاصر دبي: دار العالم العربي.
- (٢٠٠٨م). أنماط الرواية العربية الجديدة. كويت: عالم المعرفة.

^١ انظر خليل، إبراهيم محمود، النقد الأدبي الحديث (عمّان: دار المسيرة، ٢٠١١م)، ص ١٨٥

^٢ زيدان، محال، ص ١٦٩.

^٣ زيدان، محال، ص ١٢٥.